

أبحاث مغربية

محاولة للدفاع عن براعة

عبد الرحمن الفاسي

القيت في سنة ١٩٥٢ محاضرة بمعهد الدروس العليا بالرباط بعنوان : الآداب المغربية على عهد الامبراطورية ، وتسعني الذاكرة اليوم بأن تلك المحاضرة كانت دفاعاً عن الأدب المغربي في تلك الحقبة التي انتظم فيها عهد المرابطين المعروفين بالملتزمين وعهد الموحدين ، وهذا البحث يعد امتداداً لذلك الدفاع ، حيث أني أرجع اليوم القهقري لأخصص هذا البحث للدفاع عن الدور الاول من ادوار تاريخ ادبنا المغربي الذي ينتظم فيه من الناحية السياسية عصر الفتوح والولاء ، وعصر الشرفاء الأدارسة ، ثم عهد مغراوه وبني ايفرن ، وبذلك اصل بهذا البحث بين دورين ادبيين متعاقبين ، وقد نظمت في هذا الدور الاول العهود السياسية المذكورة كلها استجابة لما تقتضيه طبيعة مثل هذه الأبحاث التي تعز مصادرها بما في ذلك المخطوطات .

واعني انني لا اعتمد العصور السياسية في منهاجي ، وإنما أرى ان خصائص ومميزات النصوص والآثار ، الشعرية أو النثرية ، اولى بالاعتبار في تحديد الاطوار الادبية في مثل هذه الدراسات التي تعتبر الى حد الآن مجرد محاولات لكشف الستار عن حلقة مفقودة في تاريخ ادبنا العربي بوجه عام .

والمهم على كل حال ، هو المبادرة الى القول بأن هذه الفترة أو هذا الدور - بتعبير

محدد - قد كان كالدور الذي يليه ، واعني دور عهد المرابطين بالمغرب ، هدف تهجم فقرف بالعمى ، وجرح أهله بنضوب القرائح وقلة الفهم ، وذلك عقيب لتواطوء القدامى والمحدثين على هذه الاحكام ، وربما كانوا مستندين في ذلك على شهادة صادرة عن عارف لا يتطرق الى معرفته او حياده ما يوجب الطعن في حكمه على هذه الاوطان ، تلك هي شهادة بحر اللغة وامام الكلام وشيخ الادب ببغداد الوافد على شبه جزيرة الاندلس في عهد بني مروان أبي علي القالي صاحب الامالي ^(١) حين قال : (لما وصلت القيروان وأنا اعتبر من أمر به من اهل الامصار فأجدتهم درجات في العبارة وقلة الفهم بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد ، كأن منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم ، محاصة ومقايضة ، فقلت ان نقص اهل الاندلس عن مقادير من رأيت في افهامهم بقدر نقصان هؤلاء عن قبلهم فسأحتاج الى ترجمان في هذه الأوطان) ^(٢) .

وهكذا سجلها عالم بغداد على عباراتنا وافهامنا ، وقد كان دخوله الاندلس عام ثلاثين وثلاث مائة ، ودخل قرطبة على حد تعبيره في شعبان لثلاث بقين منه ^(٣) وجزيرة الاندلس

(١) انظر ترجمته الوافية في ارشاد الأريب ج ٧ ص ٢٨ وما بعدها ، وانظر ج ٢ ص ٣٥٢ وما بعدها ، وانظر وفيات الاعيان تحقيق الاستاذ محمد محيي الدين ج ١ ص ٢٠٤ وما بعدها تحت الترجمة رقم ٩٢ ، وانظر نفح الطيب تحقيق الاستاذ محمد محيي الدين ج ١ ص ٣٤١ والجزء ٤ ص ٧٠ وما بعدها وانظر ص ١٥٠ وراجع انباء الرواة ج ١ ص ٣٠ - ٢٠٥ وما بعدها ، وانظر تاريخ قضاة الاندلس ٦٦ وانظر (بنية الوعاة) ١٩٨ وانظر بغية الملتبس للضيبي ، مجريط ص ٢١٧ وانظر طبقات الزبيدي ص ٢٠٣ - ٢٠٤ ، وانظر فهرست ابن خير ص ٣٢٨ - ٣٥٣ وما بعدها و ص ٤٢٢ وانظر ازهار الرياض ج ٢ ص ٢٧٣ ، وانظر جذوة المقتبس ص ١٥٥ - ١٥٦ ، وانظر شذرات الذهب ج ٣ ص ١٨ ، وانظر التكملة لابن الأبار ، وراجع الترجمة للمهمة لمقدمة الامالي للاستاذ محمد عبد الجواد الاصمعي - دائرة المعارف الاسلامية - الترجمة .

(٢) انظر اصل النص في مقدمة الذخيرة لابن بسام ، وانظر نفح الطيب ج ٤ ص ١٥٠ وقد وردت هذه الكلمة في غير ما مصدر من مصادر ترجمته .

(٣) انظر وفيات الاعيان - انباء الرواة - طبقات الزبيدي - ارشاد الأريب .

يومئذ في ازهى عصورها الادبية والعلمية على عهد ناصر بني مروان ^(١) ، ففي امهات مدنها وكورها تنبت عشرات المكاتب لعامة الناس ، وفي جامعاتها تعتمل وتختمر ثقافة مؤذنة بطلائع نهضة العلوم التي بلغت فيما بعد أوج الكمال ، فهذه قرطبة التي حج اليها القالي تعج بالعديد من رجال العلم الرواد الذين عني بذكرهم صاعد في الطبقات ، وتحفل بشعراء وعلماء هذه الحقبة أمثال ، ابن هاني ، والمصحفي ، والزبيدي ، وابن القوطية ، وابن فرج الجياني ، وخلق آخريين ممن عني بذكر اسمائهم ابن حزم في الرسالة ، وابن سعيد في الذيل ، حسبما ينقل عنه .

وماذا يمكن ان يقال عن أهل البلاغة والبيان في هذه الجزيرة ، واشراف عرب المشرق افتتحوها (وسادات احفاد اهل الشام والعراق نزلوها ، فبقي النسل فيها بكل اقليم على عرق كريم) : (نفح الطيب) .

لقد وفد القالي من عراق المشرق الى عراق المغرب ، حيث لطفت نسيمات الانهار من اجوائه ، وعطرت الرياض العربية ساحاته ، فهزج اهله في باديتهم وحاضرتهم بكل رائق منظوم ، وترنموا بكل بديع منشور .

وماذا اقول عن بغداد المشرق التي ورد منها هذا الامام ، وهي يومئذ عاصمة الدنيا ،

(١) ورد في ارشاد الارب بطالعة ترجمة القالي ان وفادته على الاندلس كانت على عهد الحكم المستنصر ، اي على عهد ابن الناصر وخلفه من بعده ، ولكن ياقوت عاد فتمتل عن الحميدي في نفس الترجمة ان الوفاة كانت على عهد الناصر ، وهذا ما اوحى الى الاستاذ الفاضل ابن عاشور في بحثه القيم بالجزء التاسع عشر من مجلة مجمع اللغة العربية حول (السند التونسي في علم متن اللغة) الى ان يعلن ان ياقوت قد وهم ، والواقع ان نقل ياقوت عن الحميدي يرفع عنه هذا الوهم ، ويعد ذكر الحكم من باب سبق الفلم ، لاسيما وسباق كلام ياقوت لا يفيد عرض خلاف في الموضوع ، بينما تفيد عبارة المقرئ في النفح ان هناك خلافاً ، وكأني بالمقرئ هو الذي وقع في وهم قد يكون ناشئاً عن نظرة عابرة على ما في ترجمة القالي في ارشاد الارب ، والمقطوع به ان الوفاة تمت على عهد ايام الناصر ، للاجماع على ان قصة علي القالي وحصره عند ما تقدم لالقاء الخطبة وقيام منذر بن سعيد مقامه قد كانت على عهد الناصر لاعلى عهد الحكم ، راجع لتحقيقات الاستاذ البير مطلق في كتابه الحركة اللغوية في الاندلس لدى تعرضه لأبي علي القالي .

ومهد شيوخ العلم وعباقره الآداب ، وقد استبحر فيها العمران ، وبلغت فيها المدنية العربية غايتها ، واخذ فيها ذوو الدعة واليسار لأسباب الكمال ، بعد ان استكملوا - كما عبر ابن خلدون - الضروري والخارجي من شؤون الحياة .

لقد ورد أبو علي القالي من عاصمة الشرق وهي في ريعان عزها ، وابان امجادها الى عاصمة الغرب (قرطبة) وهي يومئذ في عنفوان ازدهارها وشباب حضارتها ، وبين تلك وهذه متوسطة بين القيروان وشط الزقاق ^(١) قد انتظمت فيها بلاد وامصار ، لم تتح لها ظروفها السياسية وملاساتها الاقليمية من مقومات الاستعراب ما يمكنها من تجويد العبارات وشحن الافهام ، فما استوى لها في لغة الضاد أدب ، وما حج اليها طلاب ، وما كان لقادم عليها كالقالي ، انشاد ولا أملاء ، فمن الطبيعي ان تكون هذه الدنيا المتوسطة على سعتها وتعدد امصارها ، ونضارة ارجائها ، صحراء جرداء في عين ونظر عالم لغة ، لا يعنيه من حال المسالك والممالك الاعبارات السكان ، فهي في نظره مقياس الحياة ، ومعيار افهام الاحياء .

واغلب الظن ان هذه الكلمة من الامام القالي التي ذيلت بثناء خاص على أهل الجزيرة الاندلسية - وقد كان بينهم وبين أهل بر العدو ^(٢) صراع ومفاخرات فكرية لها ذكر مشهور في غير ما كتاب - قد أمدت بالغذاء عواطف بعض الاندلسيين الاعلام ، اولئك الذين جمحت بهم الحمية لبلادهم ، والعصبية لرجالهم ، فلم يتخرجوا من تنقيص اي عبقرى كان ، وفي اي وطن وفي أي زمان ، اذا ما دعت الى ذلك ضرورة ابداء محاسن الجزيرة ، وتعداد من طلع في أفق ذلك الفردوس .

وهكذا نرى ابن بسام - وهو فيما يظهر - أول من سجل هذه القالة في مقدمه كتاب

(١) بوغاز جبل طارق أو جبل الفتح كما يسميه بعض المؤرخين القدامى .

(٢) يطلق الاندلسيون بر العدو على المغرب الاقصى اي على (مراکش) في الاصطلاح الحديث

لاخواننا للمشاركة .

الذخيرة - يوردها في معرض الاشادة بفضل ومحاسن اهل الجزيرة ، فما ان فرغ من تسجيلها حتى أردفها بذلك التذييل الذي يستروح منه الباحث الدافع الباطني الذي حداه لروايتها ، فاذا هو يقول اثرها بكل بساطة : (وبلغني ان أبا علي كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل الافق الاندلسي في ذكائهم ويتغنى عنهم عند المباحثة والمناقشة ، ويقول لهم ان علمي علم رواية وليس بعلم دراية) .

والواقع ان ابن بسام لم يشذ^(١) عن خليقة قومه في هذا المجال فان الصفحات التي خلفها بعض مؤرخي الاندلس ، كابن غالب ، صاحب فرحة الأنفس ، وكالحجاري صاحب (المسهب)^(٢) لتدل بوضوح وجلاء على ان اعجابهم ببلادهم وتفننهم باللهج بها ، واكبارهم

(١) ومن ذلك ما يقوله ابن بسام عن ابني عبيد البكري (ولولا تأخر ولادته لانسى ذكر كنيته المتقدم) ويعني بكنيته ابا عبيد القاسم صاحب كتاب (الغريب المصنف) ولابن عبيد البكري كتاب في شرح ابيات (الغريب المصنف هذا) وكما هو معلوم فان هناك كتاباً باسم الغريب المصنف لابن عمرو اسحق بن سروان الشيباني النحوي الكوفي . والراجع ان كتاب الغريب المصنف لابن عبيد القاسم كني البكري هو الكتاب الذي استعاره منذر بن سعيد البلوطي ببني شعر من ابني علي البغدادي (نفح الطيب ج ٢ ص ٢٢٧) وليس كتاب (الغريب المصنف) لابن عمرو الشيباني لان كتاب كني البكري هو الذي كان متداولاً بالاندلس بين الادباء فما وقع في المقدمة التي كتبها الاستاذ محمد جواد الاصمعي على كتاب الامالي يعتبر مرجوحاً فيما يظهر .

(٢) ومحمد ابن غالب هو محمد بن ايوب من اهل غرناطة من رجال القرن السادس ، حسبما حققه الاستاذ لطفي عبد البديع (انظر بحثه القيم في مجلة المخطوطات العربية في المدين ١-٢ سنة ١٩٥٥) والاسم الكامل لكتاب ابن غالب هو (فرحة الأنفس في اخبار أهل الاندلس) ولا توجد من هذا الكتاب نسخة كاملة وانما هناك قطعة صغيرة منه وقع عليها الاستاذ لطفي المذكور باسم (تعليق منتقى من نزهة الأنفس) حسبما يعلم من بحثه بالمجلة المشار اليها ، وكتاب (فرحة الأنفس) من مصادر (المغرب) لابن سعيد ومن مصادر نفح الطيب الذي تنتثر بين ثناياه فصول مهمة منه (انظر محل الشاهد في ج ٤ ص ١٤٦ وراجع البحث المستفيض للدكتور حسين مؤنس حول كتاب فرحة الأنفس في كتابه تاريخ الجغرافية والجغرافيين) .

واما الحجاري فهو عبد الله بن ابراهيم الحجاري ، كانت له صحبة اكيردة مع جد علي بن سعيد صاحب (المغرب) حسبما يتفله المانري عن ابن سعيد ، وقد كان اصل كتابه (المسهب في غرائب المغرب) في ستة =

لها ، وتصغيرهم لأي صقع سواها ، قد خرج بهم عن مهيع الاعتدال الى حد يلفت الأنظار .

وانها لشهوة قاهرة - وايم الله - ان ينزع الامام ابن حزم الى اظهر ارض قرطبة بالتنقيص من القيروان حين قال مخاطباً أحد رجالها الاعلام (فهذه القيروان بلد المخاطب لنا ، ما اذكر اني رأيت في اخبارها تأليفاً غير (المغرب عن اخبار المغرب) وحاشي تواليف محمد بن يوسف الوراق ^(١) ، فانه ألف للمستنصر رحمه الله في مسالك افريقيا وممالكها ديواناً ضخماً ، وفي أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليها كتباً جمّة ، وكذلك ألف أيضاً في أخبار (تيهرت) ووهران ، وتنس ، وسجلماسة ، ونكور ، والبصرة - بلد كان معروفاً بشمال المغرب بهذا الاسم - وغيرها تواليف حسناً ^(٢) ، ثم يقول ابن حزم : (ومحمد هذا اندلسي الاصل والفرع) آباؤه من وادي الحجارة ، ومدفنه بقرطبة ، وهجرته اليها ، وان كانت نشأته بالقيروان .

وانها لحمية طاغية ان يقول الامام ابن حزم في افتخار (ونحن اذا ذكرنا أبا الأجر

اجزاء ، ويعتبر الأصل الذي اضيفت اليه زيادات وذيول بني سعيد فانبثق من مجموع ذلك كتابهم (المغرب) ومن ثم فان النصوص المصرح فيها بالنقل عنه في كتاب المغرب المطبوع بتحقيق الاستاذ البحاسة شوقي ضيف ، او التي نقلها المقرئ في (النفح) هي كل ما في يد الباحثين من كتاب المسهب ، ويعتبر كتاب (الاحاطة) لابن الخطيب السلطاني ام مصدر يمدنا بالتعريف به وبكتابه المسهب (انظر النسخة المصورة من الاحاطة بمكتبة الرباط) .

(١) يعرف الوراق (٢٩٢ - ٣٦٣) بالتاريخي لكثرة تأليفه التاريخية المشار الى بعضها في نص ابن حزم ، وقد نسب اليه البيهقي كتاباً باسم (أنساب البربر) ولا تعرف من كتب الوراق غير النصوص التي نقلها البكري في (المسالك والممالك) ومن حسن الحظ ان مخطوطة القرويين من كتاب المسالك هي القسم الخاص الذي يتضمن المغرب الى جانب ايران ومصر ، ومخطوطات القرويين يمثل احدى القطع الثلاث الموجودة من كتاب المسالك والممالك . وقد طبع قسم منه في باريس .

(٢) انظر في المجموعة الاندلسية : بغية اللاتس للضي تحت رقم ٣٠٤ وجذوة المقتبس للحميدي تحت رقم ٩٠ والتكلمة لابن الأبار تحت رقم ٣٤٤ وراجع فيما يتعلق بالتعريف بالبلاد المغربية للذكورة في نص ابن حزم ج ١ من (البيان المغرب) لابن عذارى المراكشي ، وهو الجزء الخاص بالمغرب .

جمعونة في الشعر لم نباه به إلا جريراً .. والفرزدق ، ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على مذهب الأوائل) .

وعلى ذكر جرير هنا أقول ان الدامغة في كلام هذا الامام هي التي شج بها قراءه حين قال : (ولو لم يكن لنا من نخول الشعراء الا أحمد بن محمد بن دراج القسطلي لما تأخر عن شأو بشار بن برد ، وحبيب ، والمتنبي) .

ولا غرو إذا وثب الى ذهن الباحث الآن - بحكم تداعي الافكار - تلك الكلمات المتلطفة التي فاه بها أبو الطيب المتنبي حين قال في حق ابن عبد ربه الاندلسي - وهماك به من قائل - : (والله يا ابن عبد ربه لتأتيك العراق حبواً) ، وهي كلمة تنم عن روح مشرقية سمحة ، وعن مرونة فكرية من شاعر عظيم ، سار شعره - كما يقول الثعالبي - مسير الشمس ، وانتظم اطراف الشرق والغرب ، وهذا وابن عبد ربه او المليح - كما لقبه المتنبي - لم يكن حقاً بالشاعر الذي تحبو اليه العراق او الشام ، فجده الشعري قائم عند النقاد في تجديده للموشحات ، وعلى قوة طاقته الماثلة في مدائحه الطوال ، مع انه يبدو في هذه ناضب العاطفة ، عاطلاً من الذوق الصقيل ، ودون مواطنه ابن هانيء تفنناً ، وزراه في غزله - وهو قليل من كثير شعره - ، اشعر منه في تلك المطولات ، وكأني بالمتنبي وهو لم يستملحه في غير مقطعاته الغزلات .

والواقع ان الامام ابن حزم نفسه - وهو دون ابي الوليد الشقندي ، ودون اعلام اسرة « بني سعيد » اعزازاً وحمية - قد تجاوز القصد والاعتدال في رسالته ^(١) فنراه قلما يذكر اثرأ اندلسياً دون ان يركيه بمثل هذه العبارات : (اربي فيه مؤلفه على كل من تقدمه ، او لم يؤلف مثله في الاسلام ، او ما صنف احسن منه ولا اجمع ، او انه جمع زبد الاولين والآخرين ،

(١) انظر رساله ابن حزم وذيل ابن سعيد عليها في تفح الطيب ج ٤ ص ١٥٢ وما بعدها (تحقيق

[د. ونصر محمد محيي الدين عبد الحميد] وقد ألف الوزير الحافظ رسالته هذه جواباً على رسالة ابن الريبان

الشمسي القيرواني التي ذكر فيها تفصير اهل الاندلس في تخليد اخبار علمائهم .

حتى اذا اقتصد الشيخ واعتدل قال : انه من اجل الكتب في هذا المعنى ، او هو الكتاب المعتمد عليه .

وتسلمنا هذه العصبية الفكرية الى ابي الوليد الشقندي ^(١) ، كرة اخرى ، ورسالته كما أملت الى ذلك في طالعة هذا الحديث قد نالت نيلاً من الذوق المغربي ، ومن الاستعدادات المغربية في شخصيات الملتهمين (المرابطين) بضراوة وجفاوة ظاهرتين فقد كان معنيا بتعداد فضائل قومه وبالثأر للملك الضليل المعتمد بن عباد ، ذلك الملك الشاعر الذي استطاع ان يغزو قلوب الادباء والمؤرخين حياً وميتاً ، شرقاً وغرباً ، قديماً وحديثاً . وقد كفانا الشقندي نفسه مهمة اظهار عصبية فآقر في مقدمة رسالته من غير مداورة او التواء بانه خرج عن سجيته في الاغضاء الى الحمية والاباء ، ولهذا لن يعيننا الآن من رسالته الا بعض فصولها ، حيث نلاحظ ان الاديب الاندلسي لم يتحرج وهو في معرض المساجلة من تبني احد قضاة الموحدين ، واعني الشاعر الاديب ابا حفص السلمي المراكشي ^(٢) ، فهو يشيد بهذا القاضي الطريف على انه قرطبي صميم يعز نظيره في بر العدو ولن يكون هذا فيما احسب بالغريب وقد سمعنا منذ لحظات امام الاندلس ابن حزم يحاول ان يجعل من الوراق التونسي اندلسياً بالرغم عنه ، ولأم التونسيين الهبل .

ولقد كان من اثر هذا ان كتاب التراجم الاندلسيين درجوا في عزو الرجال الى الاوطان على غير منهاج معلوم ومقياس مرسوم ، فتارة يعتدون بالمولد والنشأة ، وطوراً بالوفاة ،

(١) الشقندي نسبة الى شقندة من ارباض قرطبة على الضفة اليسرى للوادي الكبير ، ويفهم من كلام بعض المؤرخين ان الارباض بمعنى الضواحي ، ويظهر انها صارت تطلق على الاحياء بعد توسع قرطبة ، والشقندي هو ابو الوليد اسماعيل بن محمد اديب شاعر وفقه جمع فنوناً من العلوم القديمة والحديثة على نمط اعلام الاندلس ، ولي قضاء (بياضة ولورقة) وقد عرف به المقرئ في (النفح) نقلاً عن ابن سعيد (انظر النفح ج ٤ ص ٢٠٨ وما بعدها) ونقل نقفاً من شعره وذكر انه توفي سنة ٦٢٩ وأورد صاحب النفح رسالة الشقندي بتمامها وقصة تأليفها كمدارسة لرسالة ابن المعلم الطنجي المغربي (انظر النفح ج ٤ ص ١٧٦ وما بعدها) وقد اقتطف المرحوم زكي مبارك فصولاً من هذه الرسالة في كتابه (الموازنة بين الشعراء) (الطبعة الثانية - طبعة الحلبي)

(٢) انظر ترجمته في حرف العين من كتاب (الاعلام) من حل بمراكش وانحات من الاعلام) لقاضي مراكش المنفور له عباس بن ابراهيم .

وآناً بالهجرة ، وانما المدار في ذلك على ما يروونه انساب لاندلسيتهم واشكل باقليمهم ، وقد حاول ابن حزم نفسه ان يضع ضابطاً لذلك باعتماد جانب الهجرة ، واستند في ذلك على المؤرخين الائمة السالفين ، فقال انهم اعتمدوها ، وأشار الى بعض الامثلة كذكرهم الامام علياً في الكوفيين مع انه ظل ثمانية وخمسين عاماً واشهرأً بمكة والمدينة ، ثم انتقل الامام الى هذا الضابط حيث قال : فمن هاجر الينا من سائر البلاد فنحن احق به ، وهو منا بحكم جميع اولي الامر منا الذين اجمعهم فرض اتباعه ، وخلافه محرم اقترافه ، ومن هاجر الى غيرنا فلا حظ لنا فيه ، والمكان الذي اختاره اسعد به) .

ولكن الملاحظ ان هذا الضابط قد انحرم واختل في غير ما معجم من معاجم الرجال ، فنراه يطبق تطبيقاً على مثل الشاعر الشريف السبتي شارح مقصورة حازم ، فهو عندهم الشريف الغرناطي ومذكور في عداد الاصلين لا في عداد الطارئین او الغرباء كما يسمونهم ، وقد نظروا في ذلك الى انه هاجر الى غرناطة وبها ادركته الوفاة بينما نرى هذا الجهم الغفير من الاعلام الذين حطوا بساحاتنا واقبروا في تراب عدوتنا ، بمراكش ، وفاس ، واغمات ، قد ادرجوا في التراجم الاندلسية الاصلية لايين الغرباء ، وما هذا الا مظهر من مظاهر عصبيتهم الفكرية ولا مراء .

أما ثالث الثلاثة فهو المؤرخ الاديب أبو الحسن بن سعيد^(١) واعني به في الواقع احد افراد اسرة بني سعيد وكانوا ستة ، ألفوا بالموارثة^(٢) كتاب (المغرب في حلى أهل المغرب) وكان أبو الحسن علي بن سعيد آخر من تم الكتاب على يده ، وقد اشتهر أيضاً بالذيل (المشار اليه آنفاً) الذي وضعه على رسالة ابن حزم ، وجرى فيه على نفس المبيع والنزعة ، وبذلك يعد من شواهد هذا المقام .

(١) راجع قصة تأليف الكتاب في نفح الطيب ج ٣ ص ٩٥ وراجع البحث القيم عن كتاب المغرب الوارد في كتاب الدكتور حسين مؤنس عن الجغرافية والجغرافيين ، وراجع ترجمة أبي الحسن ابن سعيد في النفح ج ٣ ابتداء من ص ٣٧ .

وكتاب المغرب وان كان يسجل بالنسبة لبر العدو تنويراً بمدينة مراکش وسبتة وفاس وسلا إلا انه يعرض علينا نموذجاً أساسياً من مظاهر العصية الاندلسية وذلك من الناحية الجغرافية باغراقه في اطراء بلاد الجزيرة الاندلسية ، كما انه من جهة اخرى يعرض علينا مظهراً للعصية الفكرية الماثلة في تلك المعارضات الادبية التي أمعن في العناية بها ادباء الاندلس امعاناً ، شعراً ونثراً ، وهنا ندع الاديب والباحث المصري الدكتور شوقي ضيف محقق الاجزاء الموجودة من كتاب (المغرب) يقدم لنا ابن سعيد في عنجهيته وحيمته حين يقول عنه : (وقد ذهب علي بن سعيد آخر المصنفين مذهب المعارضة والمناسبة للمشاركة .

فلم يترك لبلدة من بلاد طريفة بدية من بدع الشعر ، ولا تحفة نفيسة من تحف الموشحات والازجال الا جاء بها معارضاً متحدياً) .

هكذا يقول في تحقيقه الاستاذ المصري .

والواقع ان أهل الاندلس قد اشتطوا في هذا الميدان حتى ان مؤرخ الآداب العربية ليجد من الضرورة الملحة ان يخصص باباً لهذه المعارضات الاندلسية ، فهذا ابن بسام يؤلف كتاب (الذخيرة) معارضاً به كتاب (اليتيمة) ، وابن فرج الجياي يؤلف كتاب (الحقائق) مضاهياً به كتاب (الزهرة)^(١) .

(١) كتاب الزهرة لمحمد بن داود الاصفهاني وقد ترجم اسم الكتاب للمستشرق الفرنسي (ماسنيون) في احد هواش كتابه عن الحلاج بما يفيد ان المراد (الزهرة) بتشديد وضم الزاي وفتح الهاء بمعنى الكوكب المعروف عند اليونان بالهة الحب ، والذي يتعين اعتناؤه هو ان يكون اسم الكتاب الزهرة بتشديد الزاي وفتحها وتسكين الهاء ، وذلك :

(١) لأن نجل الامام داود الظاهري مؤلف الكتاب كان يعرف بسيد العاشقين (انظر طبقات الشافعية وغيرها) ولم تحفظ عنه زلة ، ومن البعيد ان يدح باسم الكتاب الى الزهرة بمعنى آلهة الحب اليونانية ، والميثولوجيا العربية تسجل عنها النسق والفجور .

(٢) ان الكتاب كما تصرح بذلك مقدمته ألف برسم محبوب المؤلف وهدية له ، ولا تهدي الا

الزهور .

والرازي المؤرخ (الولد لا الوالد صاحب كتاب الرايات) يؤلف كتاباً في صفة قرطبة وخططها ومنازل الاعيان بها على نحو مما بدأ به ابن طاهر في اخبار بغداد وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها ، وأبو عبد الله ابن أبي الخصال يصنف كتاب (سراج الآداب) ناظراً الى القالي في النوادر والى الحصري في (زهر الآداب) وأبو اسماعيل بن القاسم يؤلف (النوادر) مبارياً أبا العباس المبرد في كتاب (الكامل) وعلى هذا النحو يلاحظ الباحث ان تلك البدائع السيارة لأقطاب الشعر الشرقيين ، كأبي تمام ، والبحتري ، والشريف الرضي ، وأبي نواس ^(١) لا يخطيء لها في الشعر الاندلسي معارضات متجديات ، وذلك كله يجلي عن نفسية ركب فيها الحرص على اظهار المقومات واشهار الفضائل ، واعلان تبرز أهل صقعهم على سائر الاصقاع ، ومن ثم نرى العالم الطاري عليهم مستهدفاً لترادف المنافرات أو كرية الاعراض ، وحكاياتهم تجاه أبي العلاء صاعد ^(٢) اللغوي الوارد عليهم في

= (٣) ان هذا المحبوب وهو محمد بن جامع كان صيدلانياً يبيع الطيب ببغداد ، ومن حسن الذوق ان تهدي الزهور لمن يبيع الطيب .

(٤) ان ابن فرج الجياني الذي عارض كتاب الزهرة قد جاء بكتاب اسمه الحقائق ، مما يدل على ان الكتاب كان معروفاً بالزهرة .

(٥) ان اكثر المؤلفين القدامى قد نزعوا الى هذه الفصيلة من الاسماء في تسمية مؤلفاتهم في الحب ، كروضة المحبين وغيرها ، وقد يكون هذا ما التفت اليه الدكتور نيكل من جامعة (شيكاغو) الذي نعلم انه ترجم كلمة الزهرة بما يعني الزهرة الفواحة لأكوكب الزهرة . غير ان النسخة التي بين ايدينا انما هي نسخة مصورة عن طبعته فيما يظهر ، وقد اغفل فيها نشر المقدمة ، فلا نعلم ما هنالك من مستندات جعلتنا معه على وفاق .

(١) من المعروف ما كان لشعراء الاندلس من واهع عجيب بمعارضة من نبغ من الشعراء في مصر والشام والعراق ، وقصة معارضة ابن دراج النسطلي لرائية ابي نواس مشهورة ، وقد كان المنصور بن أبي عامر نفسه هو الذي أوحى بالمعارضة (انظر وفيات الاعيان) وانظر في (الموازنة بين الشعراء) للدكتور زكي مبارك ، الموازنة التي عقدها بين الرائيين ورجح فيها رائية ابن دراج .

(٢) ترجمته في الذخيرة لابن بسام وفي (المعجب) للدراكشي وفي (نفتح الطيب) ج ٤ ص ٧٥ وفي (بنية الوعاة) ص ٢٦٧ وفي (ابن خلكان) ج ٢ ص ١٨١ .

عهد العامرين ماثلة بين يدينا للعيان ، وهى تشهد بتجاوزهم حد احراجهم واعناته الى القدح
في علمه وفي عقله ودينه ، مع العلم بانه كان اعانهم على نفسه بما كان يتنفق^(١) به من الكذب ،
على حد تعبير ابن بسام - ثم كان منهم ان نبذوا كتابه (الفصوص) ودحضوه ورفضوه
والقوا به في النهر ، وفي ذلك قال قائلهم وهو متداول مشهور :

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقیل يغوص
فأجابه صاعد :

عاد الى معدنه انما توجد في قعر البحار الفصوص
ومن أعجب ما جرى لصاعد - كما يروي صاحب نفح الطيب - انه كان بين يدي المنصور
فأحضرت اليه وردة في غير وقتها لم يستم فتح ورقها ، فقال فيها صاعد مرتجلاً :

أتتـك أبا عامر وردة يذكرـك المسك انفسها

كعذراء ابصرها مبصر فغطت بأكامها راسها

وكان ابن العريف حاضراً فحسده ، وجرى الى مناقضته ، وقال لابن أبي عامر : هذان
البيتان لغيره ، وقد انشدنيهما بعض البغداديين بمصر لنفسه ، وهما عندي على ظهر كتاب
بخطه ، فقال له المنصور أرنيه ، فخرج ابن العريف وركب ، وحرك دابته حتى أتى مجلس
ابن برد - وكان احسن اهل زمانه بديهة - فوصف له ما جرى ، فقال هذه الايات ودس
فيها بيتي صاعد :

عشوت الى قصر عباسية وقد جدل النوم حراسها

فألقيتها وهى في خدرها وقد صرع السكر آناسها

فقلت اسار على هجمة فقلت بلى ، فرمت كاسها

ومدت يديها الى وردة يحاكي لك الطيب انفسها

كعذراء ابصرها مبصر فغطت بأكامها راسها

(١) انظر نفح الطيب ج ٤ ص ٧٨ .

وقالت خف الله لا تفضحن (م) في ابنة عمك عباسها
فوليت عنها على غفلة وما خنت ناسي ولا ناسها
فطار ابن العريف بها وعلقها على ظهر كتاب ، بخط مصري ومداد اشقر ، ودخل بها
على المنصور فلما رآها اشتد غيظه على صاعد ، وقال للحاضرين : غداً امتحنه ، فان فضحه
الامتحان اخرجته من البلاد ولم يبق في موضع لي عليه سلطان .
ثم يتابع صاحب نفح الطيب قصة امتحانه الذي اعزه واعلاه ، الى ان الحقه المنصور
بالندماء .

وهكذا ، نرى انه لا يكاد يسلم من مثل تنقيصاتهم الجارحة إلا الراسخون الذين
يفرضون شخصيتهم العلمية بعد اختبار وامتحان ، وهذا ابو علي القالي نفسه بالرغم من انه
كان له ولاء ^(١) في بني امية وورد الاندلس باستدعاء من الحكم المستنصر - الذي كان
يومئذ ولي عهد والده الناصر عبدالرحمن ^(٢) - قد كادت ان تذهب بسمعته العلمية بادرة
تعنت بدهة بها اديب من ريف قرطبة وذلك في نفس اللحظة التي وطئت فيها قدماء تراب
الجزيرة ، ويروى المقرئ قصة ذلك فيقول : (ومنها ابو علي القالي صاحب الامالي والنوادر ،
وفد على الاندلس ايام الناصر امير المؤمنين عبدالرحمن ، فأمر ابنه الحكم - وكان يتصرف من
امر ابنه كالوزير - عاملهم ابن رماحس ان يجيء مع ابي علي الى قرطبة ، ويتلقاه في وفد من
وجوه رعيته ، ينتخبهم من بياض اهل الكورة تكرامة لابي علي ، ففعل وسار معه نحو
قرطبة في موكب نبيل ، فكانوا يتذاكرون الادب في طريقهم ، ويتناشدون الاشعار الى
ان تجاوزوا يوماً وهم سائرون ادب عبد الملك بن مروان ومسالته جلساءه عن افضل
المناديل وانشاده بيت عبدة بن الطيب :

تمت قننا الى جرد مسومة
اعرافهم لا يديننا مناديل

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٧٥

(٢) لعل هذا الاستدعاء على يد الحكم الذي عرف فيما بعد بالاستنصر هو اصل ما انبته ياقوت في
مقدمة ترجمته للقالي من انه قدم الاندلس على عهد الحكم .

وكان الذاكر للحكاية الشيخ ابو علي ، فانشد الكلمة في البيت (اعرافها لا يدينا مناديل)
فانكرها ابن رفاعه الالبيري ، وكان من اهل الادب والمعرفة وفي خلقه حرج وزعارة ،
فاستعاد ابا علي البيت مستثبناً مرتين في كليهما انشده (اعرافها) فلولى ابن رفاعه عنانه
منصرفاً وقال : مع هذا يوفد على امير المؤمنين ، وتتجشم الرحلة لتعظيمه وهو لا يقيم
وزن بيت مشهور بين الناس لا يغلط الصبيان فيه ، والله لا تبعته خطوة ، وانصرف عن
الجماعة ، وندبه اميره ابن رماحس الا يفعل ، فلم يجد فيه حيلة ، وكتب الى الحكم يعرفه
ويصف ما جرى لابن رفاعه ويشكوه ، فأجابه على ظهر كتابه : (الحمد لله الذي جعل في
بادية من بوادينا من يخطىء وافد اهل العراق) .

ولعل الانتباه قد علق طبعاً بحجـواب الحكم الذي صادف الحادث في نفسه هوى فلم
ينشب ان حمد الله الذي انشأ في باديته من يخطىء وافد العراق ، وهذا محل الشاهد طبعاً في
في هذا المقام .

وينتهي بي جميع ما قصصته الى تسجيل ملحوظة تعتبر تكملة اساسية في هذا المقام
وهي ان هناك مؤرخاً مغربياً يعتبر - حسبما اعرف - المؤرخ الوحيد الذي اثاره هذا
التعصب الاندلسي وحاول ان يكشف عما كان له من اثر في مجانفة المنهاج السوى في عزو
الرجال الى الاوطان ^(١) ، واعني به المؤرخ المغربي ابا عبدالله محمد بن عبد الملك المراكشي
المتوفى سنة ثلاث وسبعمئة ، في كتابه (الذيل والتكملة على كتاب الموصول والصلة) ^(٢)
وقد قصد بكتابه هذا كما قال ^(٣) (الى تذييل صلة الراوية ابي القاسم بن بشكوال تاريخ

(١) اما صاحب كتاب (البربر) (مطبوع الرباط) فتد كان له اتجاه غير هذا الاتجاه العلمي القائم
على هدف البحث عن الحقيقة والاستقصاء الذي انفرد به ابن عبد الملك حمية المغاربة من عرب وبربر .
(٢) نشر العلامة الكبير البجاجة الشاذ الاستاذ محمد العابد الفاسي الفهري اوفى ترجمة له وتعريف
بالنسخ الموجودة من اجزاء كتابه في مجلة دعوة الحق (الاعداد ٤ - ٥ - ٦ سنة ١٩٥٩) وهي ام
ترجمة الى حد اليوم .

(٣) انظر النص في مجلة ما نقله البجاجة الدكتور احسان عباس في مقدمته بالقسم الذي حققه ونشره
اخيراً ببروت تحت اسم بقية السفر الرابع من كتاب الذيل والتكملة .

الحافظ بن الوليد بن الفرضي رحمه الله في علماء الاندلس والطارئين عليها من غيرهم يذكر من أتى بعده منهم وتكملها بمن كان حقه ان يذكر فأغفله) .

وقد نمت عن هذا المؤلف المراكشي طبيعة قصده ، عندما تعرض لمنهاجه في التأليف فأعلن انه جنح اليه لما لا حظ من عيوب فيما درج عليه كتاب التراجيم قبله ، كابن الفرضي وابن بشكوال وابن الابار ، وابن الزبير ، وابي العباس ابن فرتون ، وتعرض بصفة خاصة الى ابن الابار صاحب التكملة . فأخذ عليه من جملة المآخذ انه : ^(١) (عد في الاندلسيين جماعة من الناقلة اليها افراطاً في تعصبه للاندلس ، ومن ذلك قوله في ترجمة ابي عبدالله ابن عيسى ابي المناصف بعد ان ذكره في الاندلسيين : مولده بتونس وقيل بالمهدية وهو أصح وذكره في الغرباء لا يصح ، ضنانه بعمله على العدو ^(٢) وهذا شيء لا يليق باهل الانصاف ، وهو يشهد على صاحبه بالحسد المذموم ، واحتقار طائفة كبيرة من جلة اهل العدو) .

وبهذا النص الواضح يعرض علينا هذا المؤرخ المراكشي ما في نفسه فنعلم ان كتابه انما هو محاولة لرد الاشياء الى نصابها : وعزو الرجال الى اوطانها ، وانصاف العدو ممن اجحفوا بها ، ومع الاسف الشديد فان كتابه الذي كان معروفاً بالشرق في تسعة مجلدات على عهد السيوطي ^(٣) لا توجد منه الآن غير نسختين من الجزء الاول ونسخة من قطعة من الرابع وثلاث نسخ من الجزء الخامس ونسختين من الجزء السادس ونسخة واحدة من الجزء التاسع وهي موزعة بين المغرب واوروبا ، حسبما تدل على ذلك افادات العلامة محمد العابد الفاسي في ترجمته لصاحب الذيل والتكملة ، والدكتور احسان عباس ، وبهذا التزوير اليسير الواصل اليها غير موصول لا يتاح لنا ان نستجلي مدى ما انتهى اليه هذا المؤرخ من نتائج قصده في انصاف بني جلدته .

(١) أنقل هذا النص بواسطة المحقق الدكتور احسان عباس في مقدمته المشار اليه في الهامش سابقاً .

(٢) يعني عدوة المغرب كما هو اصطلاح الاندلسيين .

(٣) انظر مقدمة (بغية الوعاة)

كما اننا لا نعثر على احد من المؤرخين المغاربة بعد ابن عبد الملك هذا حاول ان ينحو هذا النحو في التمهيص والاستجلاء ، وقد اطلقها الشيخ ابو المحامد الفاسي الفهري زفرة في كتابه (مرآة المحاسن) ^(١) حين اعلن ان المغاربة وصفوا قديما بالاهمال قاصداً بذلك اهمالهم لرجالهم الاعلام .

واذا جعلنا نصب العين ازاء هذا ان الكثير من الآثار المغربية وحتى الاندلسية قد غنى عليها الزمن وترادف احداث العدوتين ، استطعنا ان نتصور فداحة الفراغ الذي يعترض الباحثين اليوم اذا ما حاولوا الكشف عن هذه الحلقة المفقودة من ادبنا المغربي ، سواء منها ما يتعلق بالفترة التي يشير اليها شيخ بغداد القالي او الى الفترات التالية بوجه عام ، ويكتفي ان اشير على سبيل المثال فقط الى ان رسالة ابي الوليد الشقندي التي وضعت اساساً كمعارضة ^(٢) لرسالة وضعها اديب مغربي يعرف بابن المعلم الطنجي وانبرى فيها الى تعداد مفاخر رجال بر العدو - حسبما يقول صاحب نفح الطيب - قد ساءلها الحظ فاحتفظ بها الزمان بينما غنى على الرسالة المغربية فلا يوجد لها نص في كتاب ، بل لا نعثر حتى على هوية هذا الاديب الطنجي الذي يعتبر من الادباء المغاربة المجاهيل الى حد اليوم . ومن الانصاف ان نقبين وجه العذر في متابعة الباحثين المحدثين ^(٣) لكتاب التراجم الاندلسيين الذين شاءوا ان يستبدوا بكل عالم واديب ، واسجل في هذا الصدد ان

(١) من المطبوعات النادرة للطبعة الحجرية بمدينة فاس .

(٢) انظر قصة تأليف الرسالتين (الاندلسية والمغربية) في نفح الطيب ج ٤ ص ١٧٦ وما بعدها .

(٣) الاستقصاء في مثل هذا مما تنوء به هوامش بحث محدود كهذا ، واكتفي بالإشارة الى ما سجله الاستاذ احمد بن جد وفي التحقيق الذي كتبه عن رحلة العبد رى التي نشرها بالجزائر سنة ١٩٦٥ كما اشير الى ما سجله للمستشرق كراتشكوفسكي في تاريخ الادب الجغرافي العربي عن اندلسية الجواله اليهودي ابراهيم ابن يعقوب المعروف بالطرطوشي . مع ان اندلسيته غير محققة ، وقد تابعه بالنقل عنه في هذه الاندلسية الدكتور عبد العزيز الدوري في بحثه : (الجغرافيون العرب وروسيا المجلد ١٣ من مجلة المجمع العلمي العراقي) و ابراهيم بن يعقوب هذا قد عاصر المؤرخ الاندلسي الرازي وهو الذي كتب رسالة للحكم المستنصر عن رحلة قام بها الى المانيا وبلاد الصقالبة وشمال اوربا ، وينقل البكري عن هذه الرسالة في =

الابحاث التي صدرت مؤخراً عن ابي عبدالله محمد العبدري صاحب الرحلة^(١) ومنها البحث المهم الذي نشره الاستاذ محمد الفاسي مدير جامعة محمد الخامس في صحيفة^(٢) معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، ثم الترجمة التي عقدها له الاستاذ حسين مؤنس في كتابه عن الجغرافية والجغرافيين في الاندلس^(٣) قد كان من شأنها ان تلقي الضوء على الاوهام الناشئة عن متابعة كتاب التراجم الاندلسيين ، فالاستاذ حسين مؤنس بعد ما اشار الى جملة الابحاث الصادرة عن الرحالة المغربي العبدري انتهى الى وجه الصواب ومقتضيات التحقيق فقال : (وسواء أكان الرجل اندلسياً بلنسي الاصل ثم نشأ في المغرب او كان عربياً مغربياً لا صلة له بالاندلس فانه يعد في المغاربة ، ولا مكان له والحالة هذه في بحثنا هذا ، وانما نذكر في هذا الموضع لعرض الخلاف في نسبه واصله ، ولانه منظوم في سلك الاندلسيين عند « بونس ويحس » ، « وشيربونو » ، « وبروكلان » ، « وجندالث بلنسيه » ، « وكراثشكوفسكي » ، ومن الحق ان يصحح هذا الخطأ ويوضع الرجل في اطاره الصحيح) على ان الاستاذ حسين مؤنس عاد فذيل حكمه هذا قائلاً : (وان كان تاريخ الثقافة العربية في الغرب الاسلامي كله لم يعرف التفرقة الحاسمة بين اندلسي ومغربي) .

والواقع ان ما قصصته سابقاً وما استعرضته من ظواهر التفرقة التي دفعت بابن عبد الملك المراكشي الى وضع كتابه ذيلاً على كتابي ابن الفرضي وابن بشكوال وغيرهما من المصادر الاندلسية يتيح للملاحظ القول بأن في كلام الاستاذ حسين مؤنس اضطراباً . وعلى كل حال ، فالواقع والمؤكد ان نزعة التعصب الاندلسية كانت من جملة الاسباب

المسالك والممالك حسبما يلاحظ من مخطوط الرابط ، كما ينقل عنه في حديثه عن الصقالبة والروس ، وذلك ما يلاحظ من قطعه المسالك والممالك التي نشرها فون روزن وكونك عن مخطوطة مكتبة نور عثمانية ، وراجع ما كتبه الدكتور حسين مؤنس في كتابه الجغرافية والجغرافيون العرب حول ابراهيم بن يعقوب الطرطوشي هذا .

(١) بدأها عام ٦٨٨ هـ - ١٢٨٩ م

(٢) انظر الاعداد ٩ - ١٠ سنة ٦١ / ١٩٦٢

(٣) مستل من سلسلة ابحاثه بمجلة الدراسات العليا في مدريد .

التي عملت عملها في تصوير بر العدو وكأنه صحراء قاحلة ، بينما اسجل من جهة ثانية ان هذه النزعة الاندلسية نفسها كما ضحمت سواد الاندلسيين الاعلام حتى لقد اصبح العنصر المغربي يبدو في ذلك السواد المنتشر وكأنه الشعيرات البيض في لمة اليافع الشاب ، فكذلك أمدت هذه الظاهرة الادب والتاريخ الاندلسيين بنبض من حياة ، وقدمت لنا نصوصاً ممتعة ترتعش في طياتها العواطف والنزعات ، فنتلوها وكأنها ما زالت في طراوتها يوم لفظتها الشفاه ، أو صرت بها على الطروس الاقلام ، حسبما سمعنا عن ابن حزم وعن أبي الوليد الشقندي منذ لحظات .

والى هنا ينشأ في نفس الباحث تساؤل عن هذه النزعة الاندلسية التي دفعت بابن بسام صاحب الذخيرة الى تسجيل كلمة أبي علي القالي فيقال : الا يمكن ان تكون الكلمة موضوعة وما جرى بها للقالي لسان ؟ .

ان الاخلاص للبحث لا يجيز لنا ان نخرج ابن بسام بالوضع والتقول على الناس لا سيما وهو عدل مذكور في الثقة ، ولكن الباحث يستطيع ان يلاحظ - مع هذا الاحتراس - ان ابن بسام قد انفرد بتدوين هذه الكلمة ، كما انه لا يرويها مسندة الى أحد ، ولا هو يغرفها من كتاب ، ونجعل نصب العين ازاء هذا انه ذيل كلمة ابي علي القالي بالمقصود المراد الذي توحى به العصبية الاندلسية فقال : (وبلغني ان أبا علي كان يصل كلامه هذا بالتعجب من اهل هذا الافق الاندلسي في ذكائهم) .

ونحن بعد ، امام كلام مبلغ عن طريق اللسان لاعن مسجلات الاقلام ، ثم بملاحظة ان ما بين تاريخ وفادة ابي علي القالي على الاندلس وبين وفاة ابن بسام قرنان كاملان من الزمان لن يكون الباحث مبعداً اذا قال ان الكلمة ربما حرفت بتناقلها على الألسنة مع تطاول الايام ، وانحرف مبنائها فتغير معناها ، فأصبحت على لسان صاحب الذخيرة وقد أريد بها ما لم يردده عالم بغداد ، ولم لا يكون الامر كذلك أو قريباً اليه ، أو على نحو منه ، وامامنا الآن شاهد من نفس المقام ، وذلك ان نص كلمة القالي قد دهشته مطبعة العصر فحرفت

احدى كلماته في مطبوع ذخيرة ابن بسام ، وعقبى لذلك اصبحت كلمة (الغبوة) تقوم مقام كلمة (العبارة) واذا النص فيها يعترضنا على هذا الوجه من الاقتناع : (لما وصلت القيروان وانا اعتبر من أمر به من اهل الامصار فأجدهم درجات في الغبوة) (محرف عن العبارة) . وعد عن هذا ، فان في الامكان القول بأنه ليس من البعيد ان يكون للقالي غرض مبين وراء ما قال ، فقد يكون وراء هذا حادث جرى له مع بعض البربر - مثل الذي وقع لابن خلدون مع بعض الاعراب الذين يطلق عليهم في مقدمته العرب - والبربر في تلك الامصار اكثرية سكان تلك الاوطان المغربية التي مرّ بها في طريقه الى الجزيرة الاندلسية ، فلم يتوان عن تأرّه ، فغمز هؤلاء السكان بعجمة العبارة ، وقلة الافهام ، وهي اقصى سببه ينفس بها عن جرحه استاذ لغة وشيخ آداب ، فلنحاول ان نبحت في مكان قصة وفادته على الاندلس ، فلربما وقعنا فيها على سر ما غاب عن الحساب وند عن الحساب .

ان قصة وفادة القالي على الجزيرة الاندلسية مروية في غير ما كتاب ، فلنتناول ما يعنيننا فيها من هنا وهناك ، متجنبين مواقع الحشو وفصول الاسهاب ، فأسوق الحكاية التالية المروية عن ابن سعيد^(١) في معرض كلامه عن القاضي منذر بن سعيد ، وذلك حين قال : (واول سببه في التعلق بعبد الرحمن الناصر لما احتفل لدخول رسول ملك الروم^(٢) صاحب قسطنطينية بقصر قرطبة الاحتفال الذي اشتهر ذكره ، احب ان يقوم الخطباء والشعراء بين يديه ، تذكر جلالة مقعده ، وتصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة ورمي ملوك الامم

(١) بواسطة نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٨ .

(٢) انظر ما يتعلق بهذه الوفاة وغيرها في ابن خلدون وقد اختصر كلامه صاحب النفح في ج ١ ابتداء من ص ٣٤١ ثم نقل عن ابن حبان تفصيل ما اجمله ابن خلدون ، ويتعلق الأمر بالسفارة الأولى التي تمت عام ٣٣٦ والثانية في صيف عام ٣٣٨ وفي استقبال هذه السفارة الثانية وقعت قصة خطبة القالي التي كلها منذر بن سعيد ، والسفارتان معاً تمتا في عهد قسطنطين السابع لا في عهد رومانوس الأول ولا الثاني ، حسبما يعلم من ضبط التواريخ ، فلما جاء في (عيون الأنباء) لابن ابى اصيبعة في ترجمة ابن جلجل يعتبر وهماً لاغبار عليه .

بسهم بأسه ونجدته ، وتقدم الى الأمير الحكم ابنه وولي عهده بأعداد من يقوم لذلك من الخطباء ويقدمه امام انشاد الشعراء ، فتقدم الحكم الى أبي علي البغدادي ^(١) ضيف الخلافة وامير الكلام ، وبحر اللغة ، ان يقوم ، فقام وحمد الله واثى عليه ، وصلى على نبيه محمد (ص) ثم انقطع وبهت ، فما وصل الا قطع ، ووقف ساكتاً مفكراً ، فلما رأى ذلك منذر ابن سعيد قام قائماً بدرجة من مرقاة أبي علي ووصل افتتاحه بكلام عجيب ، بهر العقول جزالة ، وملأ الاسماع جلالة) .

وقد اضفى الفتح ابن خاقان على هذه اللحظات الحرجة صبغة رهيبية بزخرفته المعهودة وتهاويل فواصله واسجاعه ، فقال : (ان أبا علي انقطع وبهت ، فما وصل الا قطع ، ووقف ساكتاً مفكراً ، وتشوف لا ناسياً ولا متذكراً ، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد ، وكان ممن حضره في زمرة الفقهاء قام من ذاته بدرجة من مرقاته ، فوصل افتتاح أبي علي لأول خطبته بكلام عجيب ، ونادى من الاحسان في ذلك المقام كل مجيب ، فقال يسحه سحاً ، كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة) .

ويتابع ابن سعيد فيقول ، ولما فرغ منذر من خطبته أنشد :

هذا المقال الذي ما عابه فند لكن قائله أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريباً كنت مطرفاً لكنني منهم فاغتالي النكد
لولا الخلافة أبقى الله حرمتها ما كنت أبقى بأرض ما بها أحد

ويقول صاحب النفح معلقاً على هذه الأبيات : كأنه عرض بأبي علي القالي وتقديمهم اياه في هذا المقام .

(١) المنقول عن المؤرخ الأندلسي ابن حبان بواسطة نفح الطيب ان الحكم امر أولاً الفقيه محمد بن عبد البر الكشكشاني (نسبة الى إحدى قرى قنانية) وانه بهت فجاء القالي بعده وانقطع وبهت أيضاً ولكن الذي في ابن خلدون وفي (المطمح) يوافق المنقول عن ابن سعيد من ان القالي هو المأمور بالكلام أولاً .

تلك هي القصة ، وهي تعرض علينا أبا علي في هزيمة جرحته في كبرياء بدايته ، وفي شمم لغته وعبارته ، فرجت نفسه - كما تتخيل - رجاً ، لاسيما وهو قريب عهد بهزيمته الاولى على يد ابن رفاعه الألبيري التي نالت - كما نذكر - من ذوقه وحاسته الفنية ، فلا ريب ان ترادف الفاجعتين ، ولم يكن بينهما غير ثلاثة اعوام ، كان له أثره في نفس الشيخ ، ولو ان هذه الهزيمة الثانية تمت على يد مطلق اديب كابن رفاعه المعروف بشراسته وزعارة خلقه لكان الأمر ، وقيل فيه - ما قد يقال في الأولى : ان الشيخ كان ضحية حماقة وسخافات ، ولكن أبا علي بحر الكلام قد نصب معينه اليوم في حفل من وجوه اهل العلم والأدب الحافين بالخليفة ، وتجاه شخصية تدّرّع بمقومات في الفضل والعلم كاملة ، فقد كان منذر ابن سعيد^(١) خطيب مسجـد الزهراء الذي لا يجارى ، ودو بعد قاضي القضاة ، المعروف بطهارة الذمة ، وحسن الاحدوثة بين الناس ، والفقيه المتمكن الذي مهد للإمام ابن حزم بعده طريق الظاهرية ، والمتكلم النظار الذي أبان بنزعته الاعتزالية عن مرونة وحرية فكرية ، وهو الى هذا كله زعيم مدرسة لها اتباع وانصار ، فقد كان من متعسدي تلك البذرة التي نثرها قبله شيخه ابن مسرة ، وهي تلك الفلسفة التي تطابق افكار : فيلون الاسكندر ، وافلوطين في التاسوعات ، وبروقلس ، وفورجوريوس الصوري ، حسبما يستنتج من الشذرات المنتثرة عن آراء ابن مسرة في كتب ابن حزم ، والشهرزوري ، والشهرستاني ، والقفطي ، وابن أبي اصيبعة .

وغني عن البيان انه كان اديباً شاعراً^(٢) ايضاً كما سمعنا واكثر فقهاء الاندلس النبهاء

(١) القاضي منذر ابن سعيد البلوطي (٢٧٣ - ٣٥٥) راجع ترجمته في النسخ تحقيق الأستاذ محيي الدين ج ١ ص ٣٤١ - ٣٤٥ - ٣٤٨ - ٣٥٢ والجزء ٢ ص ١٠٨ - ٩ - ١٠ - ٢٢٣ وراجع (الملمح وقلائد العتيان) للفتح ابن خاقان و (تاريخ قضاة قرطبة) ، وراجع (المرقبة العليا) للقاضي النباهي و (جذوة المقتبس) للحمدري ، وراجع (الروض المعطار) في مادة بلوطة ، وانظر المصادر المشار اليها في صلب هذا البحث .

(٢) انظر ما يتعلق بشعره في المصادر المشار اليها في الهامش قبله وراجع بالخصوص نفح الطيب ج ١ ص ٣٥١ والجزء ٢ ص ٢٢٧ - ٢٢٩ .

قد رويت عنهم نتف ومقطوعات ، ومرد ذلك الى ان مذهبهم في التعليم قد قام - كما قال ابن خلدون في المقدمة - على مدارس العربية وتلقين الشعر والترسل لصغار الولدان ، ولهذا فقد كان قاضي قرطبة ممتازاً حتى في شاعريته ، ونستشف ذلك من قطعه الباقية التي يرويها المقرئ في النفج ، وتنقل ايضاً عن أبي عامر بن شهيد في (حنوت عطار) .

وبهذا انتهى الى القول باننا ازاء مقومات ثقافية تضيء صبغة خاصة على هذا الامتحان ، وتبين عن وجه الفخر في الأبيات التي أنشدها منذر بن سعيد بعد نهاية الخطاب .

والملاحظ ازاء هذا ، اننا لم نعثر عند رواة الحكاية على أي أثر^(١) لبادرة ندت في ذلك الحفل عن القالي في حق القاضي منذر بن سعيد بنفسها عن ذلك التعريض الأليم ، فهل نستطيع ان ندعي ان القالي قد وقع بعد دهشة المقام ، وبعد شهور وايام على منفذ الغض من ذلك الشامخ والنيل منه ، فاذا هو يتنقص البربر في عباراتهم وافهامهم مستهدفاً - التذكير ولو من بعيد - بأصل القاضي منذر بن سعيد ، وهو البربري الذي لن يخفى اصله الأصيل في ذلك المحيط ، وما كانت هذه إلا سببة عند عرب الأندلس الذين نعلم عنايتهم الخاصة بالأنساب واعتدادهم بها ايما اعتداد ، حتى لقد بلغ بهم الحال ان اقاموا حتى فيما بينهم الفروق والطبقات ، فكيف ازاء البربر ، وبين الفريقين قد قامت منذ الفتح الاسلامي احن وتوات^(٢) .

(١) ورد في ج ٤ ص ٤٥ من نفج الطيب عند تعرضه لتكريم المستنصر لأبي علي القالي ، وبعد ذكره لقطة من لامية الرمادي ما نصه : (وقد تقدمت ابیات القالي التي اجاب بها منذر بن سعيد في الباب قبل هذا فلنراجع هناك) وقد يسبق لذهن قارئ النفج ان ابیات القالي المحال عليها في الباب الخامس قد كانت جواباً عن ابیات منذر بن سعيد التي ختم بها خطبته ، لكن الواقع ان صاحب النفج انما يعني الاحالة على ابیات القالي اجاب بها منذر بن سعيد في غرض استمارة كتاب (الغريب المصنف) (انظر نفج الطيب ج ٢ ص ٢٢٧ ، وراجع الهامش رقم (١) في الصفحة (٤) من هذا البحث) .

(٢) العصبية بين البربر وعرب الاندلس معروفة من سير الحوادث التاريخية ، واحيل القارئ على مظاهر منها في المصادر التالية : انظر وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق الاستاذ محيي الدين عبد الحميد ج ٤ ص ٤٠٧ ، وراجع قصة (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه) في وفيات الاعيان ج ٦ ص ١٣٦ ، ونجعل =

واذكر هنا بقصة نكبة الفيلسوف ابن رشد يوم ركب من الزرافة مركبها الوعر ، فقال عند ذكرها في شرحه كتاب الحيوان لارسططاليس : وقد رأيتها (يعني الزرافة) عند ملك البربر ، وكانت منه - فيما قالوا - غفلة فان أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن قد اشم رائحة ما في هذه الاضافة (لنسبة الملك للبربر) فأسرهما في نفسه ، وانطلق مع الايام ينسج للفيلسوف الاحبولة التي رضى منه الجناح^(١) .

أفلا يبيح هذا محاولة القول بأن ما قاله أبو علي القالي في عبارات وافهام أهل هذه الأمصار - واليهم يمت القاضي بالنسب - انما كانت في حقيقتها واصلها الاصيل من وحي الوعي الباطن الذي دلّ الشيخ الاديب على مكن الغمز ، وسلاح الانتقام في نفس ميدان العبارات والبيان .

ومع كل هذا ، فأنا لا أهدف أن أصل الى القول بأن عبارات قومنا في تلك الاعصار قد كانت نفثات سحرية أولفتات بيان ، أو أن حركتنا الادبية كانت في ذلك الدور مستوية على ساق ، بل انني اسجل ان الباحث لا يستبين من خلال هذا الدور من أدوار حياة لغة العرب في بلادنا غير بوادر ضئيلة لنشأة الآداب ، والباحث يستروحها مما يتحدث به المؤرخون عن مجلس آخر الأمراء الادارسة بفاس^(٢) الذي قالوا عنه انه كان مجلس شعراء وعلماء ، ومن حديثهم ايضاً عن شاعر نعت الشريف الحسن بن محمد بن القاسم بن الحجام حيث قال يخاطبه .

وسميت حجاماً ولست بحاجم ولكن لضرب في مكان المحاجم
وهي أخبار تثير على أي حال التساؤل عن وفرة هؤلاء الشعراء أو قلتهم ، وحتى عما

== نصب العين هنا دواعي تأليف كتاب (مفاخر البربر) مطبوع الرباط وكتاب (انساب البربر) الذي نسبه البيهقي (خادم ابن تومرت) الى المؤرخ التونسي محمد بن يوسف الوراق ، والاحظ ان عز والكتاب الى الوراق قد يقوم شبهة لترجيح نسبة البربري .

(١) انظر (عيون الانباء) لابن ابي اصيبعة .

(٢) انظر مجموعة المطبوعات الحجرية بفاس التي تنتشر فيها اخبار الادارسة ونصوص من آثارهم .

إذا كانوا جميعاً من أبناء المغرب أو أنما هم طارئون منتجعون أبواب أمرائه ، ولذا فالت
الباحث لا يظهر في المصادر التاريخية بما فيها المخطوطات المغربية بأكثر من أسماء معدودة
لشـعراء اختفت أخبارهم ، وتوارت آثارهم ، فلم يعد هناك إلى حد اليوم أي مطمع
لاستجلاء صورة ما عن حياتهم ، أو الوقوع على أكثر من نتفة لهذا ، أو مقطوعة لذلك
من إنتاجهم ، وفي طليعة هؤلاء شرفاء من آل المولى إدريس نضر الله وجوهرهم ، ولولا ما
توافر لهم من مقومات - غير عنصر الأدب - لطغى على سيرهم الغموض كما طغى على سواهم
من الشعراء .

وهكذا ، وبعد التتبع والاستقراء ، فلن يعثر الباحث على أكثر من هذه الأسماء :
المولى إدريس الأزهر - ابنه القاسم - ابن السميري - إبراهيم النكوري - الأصيلي -
المكفوف الطنجي - سعيد المصمودي - محمد البجلي - إبراهيم بن إدريس - عبيد الله ابن
يحيى بن إدريس ^(١)

وأغلب هؤلاء - كما يلاحظ - منسوب إلى الحواضر التي كانت مجتمعاً للعناصر العربية
أو قواعد الحكوماتها يومئذ وهي (نكور ، طنجة ، وفاس) وإلى هذه الحواضر الشمالية
التي كانت بموقعها الجغرافي ومجتمعها قطعاً أندلسية أو تكاد ، يعزى معظم رجال الفكر
المغاربة في الأجيال الأربعة الأولى بعد فتح الإسلام ، وإذا ذكر إلى جانب هذه الحواضر
قاعدة أخرى كانت مهاد جل علماء وأدباء هذا الدور والذي تلاه وهي مدينة (سبتة) التي
أصبحت منطقة نفوذ عربي أندلسي منذ أوائل القرن الرابع وكانت بحكم موقعها مجازاً
عربياً في الغدو والرواح بين العدوتين .

وذلك ما يسلم إلى القول بأن المراكز العربية في هذه المرحلة من تاريخ المغرب هي
نفسها مراكز الحياة العقلية بطبيعة الحال ، وذلك أيضاً ما يجلي بوضوح أن لظاهرة تأخر

(١) الذي أعلم أن الشخصيتين الأخيرتين لم تذكر قبل هذا البحث من بين الأسماء التي سجلتها الأبحاث
المغربية الحديثة ، كما أسماء لمن رويت لهم نتف ومقطوعات في هذا الدور .

ركبنا الادبي في تلك الاحقاب سبباً ماثلاً في غير النقص في الافهام او نضوب القرائح والاذواق ، وانما هي ظروف خاصة وملابس طارئة لم تتح للهجرة العربية ان تشق طريقها او تأخذ في ارضنا قرارها ، كما تم ذلك في الجزيرة الاندلسية نفسها او في بعض البقاع الاخرى ومنها مصر التي سار كز على بعض اخبارها على سبيل المثال ، واعني ان العرب لم ينتشروا بامصارنا ولا اختلطوا وامتزجوا بقومنا وهم في اقطار العرب المفتوحة عماد نشأة الاداب ، وسناد حركة التعريب والاستعراب .

ففي مصر مثلاً نجد لعنصرنا العربي صلة قديمة ببلاد الاقباط ، فقد كانت أيلة وهي المعروفة اليوم بالعقبة ممرهم في رحلات الصيف والشتاء ، وهناك وفادات مذكورة تثبت اتصالاً وتزاوراً ، كوفادة عمرو بن العاص ، ورسالة حاطب بن ابي بلتعة الى المقوقس بقصد الدعوة الى الاسلام ، وكوفادة الرحالة المصري قزمان على الجزيرة العربية قبل الاسلام ، هذا الى ما روى من آثار ترغب العرب المسلمـين في هبوط مصر او (الشجرة المباركة) حيث يجدون على ضفاف النيل ما يسألون من خيرات ، فهناك امر مأثور عن الخليفة سيدنا عمر ابن الخطاب يحض فيه عامل الشام ان يسير الى مصر ثلث من بالشام من قضاة ، كما انه كان يبعث كل عام غازية من اهل المدينة للرابطه بالاسكندرية ، وكأنا اصبح عمل الفاروق رضي الله عنه تقليداً مرعياً في السياسة العربية تجاه هذه البلاد المصرية ، فنشاهد منذ الفتح الاسلامي سبلاً لا ينقطع عنها من المهاجرين افراداً وجماعات ، فكل خليفة يسير اليها إمدادات اثر إمدادات ، وكل وال يسوق اليها آلاف مؤلفة يعضدونه ويشدون أزره في الملمات ، وبالرجوع الى ما كتبه السكندي في كتاب (القضاة والولاة) وابن عبدالحكم في (فتوح مصر) والمقریزی في الجزء الاول من (الخطط) ، والى ما كتبه القلقشندي في الجزء الثالث من (صبح الاعشى) نلاحظ عناية خاصة بتاريخ هجرة القبائل العربية الى مصر وتعداد بطونها وتحديد منازلها ، ولو وضعنا نصب اعيننا مصوراً وفق تلك التفاصيل والتدقيقات الضاربة شرقاً وغرباً ، وجنوباً وشمالاً ، لرأينا العرب منتثرين في الامصار وفي

الارياف ، ومعمرين الاخاذات بالاسكندرية ، ومنتشرين في الاقطاعات، ومتوافدين زرافات
ووحداً على الربط ، وما اكثر الربط في مصر ، ومنها نفر العرب لغزو بلاد الروم
والمغرب الثلاث ، والنوبة ، والحبشة والسودان .

ان هذه الحركة لتؤذن بان تعريب تلك الارض كان تدبيراً مبيتاً مقضياً به ، سواء عند
الراشدين او عند خلفاء دمشق وبغداد ، ويروي صاحب (النجوم الزاهرة) من خطبة
للقائم عمرو بن العاص يحض فيها العرب على الانسياح في الارياف حين قال : (خي لكم على
بركة الله الى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه ، وخرافه وصيده ، واربعوا خيلكم واسمنوها ،
وصونوها واكرموها فانها جنتكم من عدوكم ، وبها مغانمكم وانفالكم) ، ثم يتابع القائم
حضره قائلاً : (فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم ، فاذا يبس العود ، وسخن العمود ، وكثر
الذباب ، وحمض اللبن ، وانقطع الورد من الشجر ، خي الى فسطاطكم على بركة الله) .

وهذه التوجيهات - الى جانب عمل الفاروق الذي عد توجيهاً عند من جاء بعده - فيما
يظهر - تشير كلها الى ما عقدت عليه النية تجاه تلك البلاد ، وحرى بسياسة يخططها الفاروق
ويرعاها ابن العاص ان تصبح في نظر ولاية الامر بعدها هدياً في السياسة لا يحيد عنه الا
جالح عن طريق الصواب .

ولقد تحققت ارادة الرجلين ، وقضى رويداً رويداً على الثورات القبطية التي كان من
المنتظر ان تشب في بعض الارزاء ، حتى اذا كانت سنة سبع عشرة ومائتين وهي السنة التي
اوقع فيها المأمون بالقبط ، امكن لبني يعرب ان ينساحوا انسياحاً ، ويمتزجوا امتزاجاً
بالسكان من الابيض المتوسط الى اسوان ، وقد تكون بذلك مجتمع اسلامي عربي بلغته
وثقافته وعوائده ، وما كاد يطل القرن الرابع الهجري حتى رأينا «ساويرس بن المقفع»
يؤلف كتابه عن تاريخ حياة البطارقة ، واذا هو يقول في مقدمته التي كتبها بنفسه انه كان
يلجأ الى القبط ليرجموا له الوثائق اليونانية والقبطية الى اللغة العربية ، وهي وثيقة ناطقة

بان اللغتين اليونانية والقبطية قد القيتا السلاح امام استعلاء لغة الضاد ، وبان حركة التعريب والاستعراب بلغت او قاربت حد السكال .

ولقد ساعد هذا الجو العربي الذي عرفته مصر منذ الفتح الاسلامي على نشوء حركة نحوية ولغوية في القرن الثاني ثم سرعان ما وطأت لبوادر نهضة ادبية في القرن الثالث ، وبفضل هذا ، وبعد ان دخلت مصر في العهد الطولوني وساد ارجاءها هدوء نسبي تهيأ لها ان تنتج ادبها العربي المصري بشعره ونثره ، واصبحت بمنجاة من تشهير ابي القالي الذي مربها في طريقه الى الجزيرة الاندلسية واتصل بشيوخ ادبها .

ولا احتاج (كما اشرت قبل) ان افصل القول بالنسبة الى الانسياح العربي في الجزيرة الاندلسية ، فذلك معروف ومتداول ، وله دواع وملايسات ساعدت عليه ، ويكفي ان احيل على كتاب (جهرة انساب العرب) لابن حزم فان المتتبع لصفحات الكتاب ليستطيع ان يتبين بوضوح حركة نزول القبائل العربية وانسياحها في ارجاء الجزيرة وكأن بين يديه خارطة تفصيلية .

أما في المغرب الاقصى او بر العدو كما في اصطلاح اهل الاندلس فقد كانت الحال غير الحال لا بالنسبة لنشاط الهجرة العربية ولا بالنسبة للاستقرار ، او لطبيعة الثورات التي نراها عند الاقباط انتفاضات ، وعند البربر انتفاضات ، فلقد كان العرب في اثناء دور الفتوح بالمغرب اقلية صغيرة وكانت مراكز نشاطهم في هذا الدور محدودة وغير قارة ، حتى اذا وافى الطور السياسي الثاني بقيام دولة الادارسة نراهم ايضاً اقلية صغيرة لما سبق من حوادث داخلية كانت سبب اعراض العرب عن الهجرة ، ثم لما استجد في عدوة الغرب (الاندلس) من استقرار دولة اموية اندلسية أغرى العرب بها ، وخف ذوو المواهب منهم الى انتجاع امرائها ، ثم جاء الدور الثالث بصراع (مغراوة) وبني (يفرن) وبانطواء البساط الادريسي العربي ، وانتشار سلك من ناصرته من عرب الاندلس والقيروان وذلك ان عقبة بن نافع الذي قام باول حملة على التراب المغربي انما اخترق بسائط البلاد ، ثم

ارتجل فتح الاطلس وصحراء (ملتونة) ارتجالاً ، وما كان في الامكان اكثر من هذا في حساب من مارس حروب البربر ، وانفسحت امامه وخلفه رقعة شاسعة يعسر ضبطها بشر اذمه القليلة من العرب ، ولهذا تعذر بسط النفوذ العربي على هذه الارض في اول الامر ، فتتابعت حوادث الانتقاض سراعاً ، وتعطل النشاط العربي حقبة من الزمن ، الى ان سمحت حوادث الشرق الداخلية بمعاودة الكرة على هذا التراب .

ومن ملاحظة هذه الظواهر في حركة الجيش الاسلامي في الشمال الافريقي يرى بعض الباحثين من عرب واجانب ان شمال افريقيا لم يكن غرض فتح في بادىء الامر وانما اتخذه العرب فيما يظهر منفذاً وطريقاً لغزو القسطنطينية من الغرب بعد ان اخفقت محاولات الاجهاز عليها من الشرق ، ولذلك ولّوا وجههم شطر اسبانيا القوطية ولم تعاودهم فكرة الانسياح في تراب المغرب وتوطيد اقدامهم في قواعده الا بعد ظهور بوادر الاخفاق في موقعة بلاط الشهداء .

وعلى كل حال ، فان الباحث المستقري لا يسعه الا ان يستثني من ظاهرة انكماش النشاط العربي واقع الحال في رقعة صغيرة بشمال المغرب اسلم بربرها من (صنهاجة) و (غمارة) على يد فاتحها صالح بن منصور الحميري عام تسع وستين ، فقد ظلت هذه الرقعة تحت لون من النفوذ العربي لاصهار هذا الفاتح الى البربر وقيام ذريته منهم بالرياسة بينهم ، واشهرهم حفيده سعيد بن ادريس مؤسس مدينة (نكور) التي غدت رباط هذه الدويلة الصغيرة حسبما يحدثنا بذلك البكري والاصطخري وابن عذارى في (البيان المغرب) وابن خلدون في التاريخ .

وهكذا ، فان قلة العناصر العربية من جهة ، وبعيد الشقة بين المغرب وبين مركز الخلافة من جهة ثانية كانا من الاسباب الرئيسة في بقاء انتشار اللغة العربية ، حيث لم يتحقق اختلاط وامتزاج بين العنصرين ، ولم يتأت القيام بمشاريع كبرى لنشر اللغة وتعميمها ، ويكفي لتصور ضالة العنصر العربي في هذا الدور ان نعلم ان الولاة العرب الذين تعاقبوا

من لدن خلفاء الشرق من الامويين ثم العباسيين لم يكن لديهم من العرب العدد الوافي بالمهمات والسكافي من المساعدين ، وانما كانوا يعتمدون على زعماء البربر ممن قرب عهدهم بالاسلام .

وأهم ما عرف في اثناء هذا الدور من مساعيهم لتعريب البربر صدور امر موسى ابن نصير الى العرب الذين نزلوا طنجة مع طارق بن زياد بتعليم البربر الفقه والقرآن ثم تلا ذلك ارسال بعثة من الفقهاء والقراء على رأس المائة الاولى لتحقيق هذه الغاية بالذات ، وقد كانت هذه المساعي - كما يبدو - جزءاً من تدبير شامل عام لما يروى من ان عبدالمملك ابن مروان قد كان امر بتعميم لغة الضاد في جميع دواوين ممالك الاسلام ، ثم بعده صدر امر آخر بالغاء اللغات الاجنبية الشائعة .

ولقد كانت مثل هذه البذور خليقة ان تؤتي اكلها لمدة مناسبة - كما وقع في مصر مثلاً - لو بقي بها في تربة هادئة مطمئنة ، ولكن سرعان ما هبت على الشمال الافريقي اعاصير بدعة الخارجية التي تسربت اليه في مطلع القرن الثاني ، ولقد وجدت هذه النحلة الدخيلة مرعاها الخصب في غرب المملكة الاسلامية بعد ان ضاق عليها الخناق في شرقها ، وذلك انها صادفت هوى في نفوس البربر بما تنطوى عليه مبادئها من الثورة على انحراف بعض الحكام ، وبما بثه رجالها المتسللون الى المغرب من فكرة العنصرية بين السكان ، فوشجت عروق نحلة الصفرية ، والاباضية ، في اكثر القبائل وتذرع بها الزعماء للاحتفاظ بسلطانهم الذي خيل اليهم انه سيضيع على يد الفاتحين العرب ، وما ان هبت حكومة الشرق توالي الكتائب اثر الكتائب الى ولايتها الذين انبروا لاستئصال جرثومة الداء حتى اشتعلت نيران فتن هوج ، امتد لهيبها من اقصى طرابلس الى طنجة عاصمة المغرب حينئذ واندلعت اول شرارة من هذه العاصمة بقتل الوالي العربي عمر بن عبدالله المرادي عام اثنين وعشرين ومائة ، وبانتصاب الزعيم البربري والصفري ميسره خليفة للمسلمين بالمغرب الاقصى الى حين .

وهنا ينشأ في نفس الباحث هذا التساؤل : الا يكون هؤلاء الخوارج العرب بين ظهرائي البربر وفي معترك حروبهم عاملاً من عوامل نشر اللغة ، وهو سؤال له حظ من النظر ، لا سيما بعد ان استقرت للخوارج دولتهم المدرارية (بتاهرت) المشار اليها ، غير ان هذا لا يفسح مجال الاعتداد بهذه الظاهرة كعامل له تأثيره الذي يحمل الباحث على استجلاء مظاهره وتعقب آثاره ، وذلك انه يلاحظ من جانب آخر ان اكثر الخوارج ومترعمتهم المعروفين باسماء انما كانوا من البربر انفسهم لا من العرب ، ولو ان بعوث الخلافة كانت تقف على هذه الارض في وجه خوارج توافر بينهم العرب كما وقع بالشرق لكان من المنتظر ان ينجلي هذا الصراع عن آثار ادبية ، ويتمخض عن انتاج في باب الشعر والخطابة ، ولبعد كل البعد ان يعفى على جميعه الضياع والنسيان او يأتي حتى على السائر منه كاليالي والايام .

وعلى كل حال فمن المؤكد ان هذا الانتقاض الذي تقوض معه نفوذ الشرق السياسي وانتكت به حبل الهدوء والاستقرار قد قطع سبيل الهجرة على الوافدين غير متسللة الخوارج والمحاربة واتى على ما من شأنه ان يقوم في هذه البلاد اساساً لحركة ادبية او لغوية .

وتسلمنا حوادث هذا الدور الى الدور السياسي الثاني عند ما انفصل المغرب عن مملكة العباسيين الكبرى اواخر القرن الثاني بمبايعة البربر المولى ادريس بن عبد الله ، وقد كان ذلك انتصاراً عربياً لاغبار عليه ، وقامت الدولة الجديدة وامرها بيد طائفة من رجال القبائل العربية التي وفدت من الأندلس ومن القيروان ملتفة بالمولى ادريس طيب الله ثراه ، وكانت بيوتاً من (قيس) و (مذحج) ، ومن (يحصب) و (الأزد) و (الصدف) ، ثم تعززت بالنازحين الى فاس من عرب قرطبة الذين اجلاهم الحكم عنها في وقعة الربض ، ثم اسندتها طائفة عربية اخرى وردت في دولة يحيى بن محمد بن ادريس من الشرق ومن الاندلس ومن القيروان .

وقد كانت فاس الحديثة العهد بالبناء كعبة هؤلاء القصاد جميعاً ، وكانت وفادتهم مبعث نشاط عربي في جميع الميادين ، ولكنه كان نشاطاً ضئيلاً في باب الأدب ، لان اغلب الوافدين على المولى ادريس من القيروانيين والاندلسيين انما كانوا اهل زراعة او تجارة وصناعة كما يحدثنا صاحب كتاب (القرطاس) وذلك ما دعت اليه ضرورة الانشاء والتعمير في تلك الايام ، أما رجال الفكر منهم - ومن بينهم اولئك الذين اقامهم المولى ادريس في مناصب الحكم - فجلهم من رجال الشريعة ورعيل الفقهاء ، ومثلهم في هذا الاتجاه اخوانهم اهل الربض .

وهناك عوارض اخرى حالت دون قيام حركة ادبية يعتد بها في هذا المجتمع ، فمنها ما يلاحظ من عدم استقرار الاحوال ، وذلك لما استعر من فتن داخلية عقبى لنشوب الخلاف بين ابناء المولى ادريس اثر اقتسام المملكة بينهم ، ثم ما استجد من قيام الخوارج الصفرية على عهد علي بن عمر حفيد المولى ادريس ، ثم ما يلاحظ من قلة الوافدين على هذه المملكة من رجال الأدب وانصرافهم عنها الى مملكتين عربيتين اكتنفتا برعدوة واستأثرتا بكل سانح وبارح من الطارئين من رجال الادب اولاهما بعدوة الاندلس وهي التي استهوت رجال الفكر والأدب بما أفاء الله فيها على العرب من ثراء المغنم ، وبما استروحوه في الامارة الاموية الجديدة من روح عربية ماثلة في تقاليدها وشعرها وصلات أمراءها ، والثانية بعدوة الشرق حيث قامت دولة الأغلبة تناصر بني العباس وتكيد لبني ادريس سراً وعلانية .

واشير الى ظاهرة لها اهميتها في هذا المقام وهي تمجاني المغاربة في مختلف العصور عن مذهب جبرتهم أهل الاندلس والقيروان القائم - كما يقول ابن خلدون - على تلقين الشعر والترسل ومدارس العربية لصغار الولدان ، وذلك ان المغاربة آثروا أخذ المتعلم في جنون صباه وأول أمره بتحصيل القرآن والقيام على اصول الفقه والحديث وعلومه ، فلا تعصف

٣٣٠ رياح الشبيبة ، وهى نزعة من نزعات أخذهم بالحزم ، ومظهر من مظاهر اعتزازهم
بالثقافة الدينية واعتدادهم بها فى كل آن .

ومع كل هذا فان مجتمع الادارسة قد فسح المجال لظهور استعدادات وملكات ادبية
كانت متوفرة فى بعض ابناء المولى ادريس ، كما عرف من بعض الاسماء المذكورة سابقاً ،
وقد اثرت عن بعضهم مقطوعات وعرف عن آخرين منهم شغف بالأدب وتعلق بذويه ،
كأبى العباس احمد الاكبر بن القاسم الذى استقدم الى بر العدو شاعر تاهرت بكر بن
حماد (١) ، وكالأمير يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس الذى كان يشهد مجلسه العلماء
والشعراء .

وعلى عهد هذا الأمير العالم الأريحي الذى انفسحت له المملكة ، ومد الله له فى النصر
والجاء ، وعلى حين فجأة طما على هذه المملكة عباب العبيديين من الشرق ، وعلى غرة
شرهت اليها دولة أمية فى الشمال بعد ان استفحل ملكها على عهد الناصر عبد الرحمن ،
فأنهار كرسي الادارسة من فاس ، وتفرقوا أيدي سبأ واعتصم فلهم بالريف وجبال (غمارة)
حيث ظلت لهم امارة صغيرة تابعة للعبيديين حيناً وللمروانيين حيناً ، وكان مقر هذه
الامارة مدينتي البصرة واصيلة ، ثم (قلعة حجر النسر) ، ومن أبرز شخصياتهم فى هذا
الدور الأمير الحسن بن كنون ، وبقتله على يد المنصور بن أبى عامر انظفاً آخر مصباح
فى دولة المولى ادريس رضى الله عنه .

ولقد اصبحت البلاد بعد أن اجلي عن عاصمتها أميرها يحيى فى مطلع القرن الرابع
مسرح نفوذ عبيدي أموي دام طيلة نصف قرن اشبه ما يكون بمد وجزر ، فما يكاد
العبيديون يفرضون سلطانهم حتى يثور عليهم شيعة الامويين ، فيتقلص نفوذهم ليقوم
مقامه النفوذ الأموي ، وما يوشك ان يستقر هذا حتى ينهض لتقويضه انصار العبيديين ،
وما كان - فيما يظهر - للدولتين طمع فى امتلاك هذه البلاد بعد أن اياستهم منها احوالها

(١) انظر لحن العوام للزبيدي ص ٢١٤ ، وانظر جذوة المقتبس للحميدي ص ٣١١ .

المضطربة طوال جيل كامل ، وبعد ما جشمها هذا الصراع افدح كافة وكبير النفقات ، وانما كانت كل منها تستهدف ان تجعل من هذه الارض ومن رجالها دريئة لاتقاء عدوان جارتها ، حتى اذا انصرف العبيديون الى سلطانهم الذي تأثل لهم في الشرق ووهن الامويون امام هذا الصراع ، نرى الامر اصبح موزعاً بين زعماء القبيلتين البربريتين : (مغراوة) انصار الامويين ، وبني (يفرن) اتباع العبيديين ، فعرف المغرب الاقصى في هذه الفترة ايامه الشداد النكدات بظعن نفوذ العرب المباشر ، وباشتعال نار الخلف وامتداد الحيف ، وانبساط الخوف .

وهكذا ، انتهى الى القول بأن اهل هذا الوطن لم تساعد ظروفهم واحوالهم في اثناء الاجيال الهجرية الأولى على الاختلاط والامتزاج بالعرب ، فلم تتمكن منهم ملكة اللغة ، ولم ينطلق لسانهم بمأثور الكلام ، ولعل هذا ما عناه ابن سعيد في كتابه (المرقص المطرب من اشعار اهل الاندلس والمغرب) حين تكلم على شعراء المغرب من اول الديار المصرية الى البحر المحيط فقال : (ان الجاهلية وما بعد الى المائة الرابعة عاطلة مما هو من شرط هذا الكتاب) .

ولا يسمع الباحث ازاء ما قصصت ورويت ، الا أن يزكي هذا الحكم ما دام الامر يتعلق بالمرقص المطرب من كلام اهل هذه الاوطان ، اما والامر يتعلق في كلمة أبي علي القالي التي مست العلم والافهام فقد يكون للباحث عليها مقال ، كما يعبر الفقهاء . وعلى كل حال ، فاذا كان أبو علي القالي عالم واديب العراق قد قالها في افهام اهل المغرب ، فقد نددت عن الامام ابن حزم الاندلسي كلمة تغض ايضاً من افهام اهل العراق ، فعندما تعرض الامام ابن حزم في رسالته الآنفة الذكر الى ما للأقاليم التي توجد فيها الاندلس من تأثير في الاستعدادات قال : (واما في قسم الاقاليم فان قرطبة مسقط رؤوسنا مع (سر من رأى) في اقليم واحد فلنا من الفهم والدكاء ما اقتضاه اقليمنا) ، وهذه واحدة بواحدة كما يقال .

عبد الرحمن الفاسي